ويلز
فيلسوف الصحافة

الصحافة أدب جديد لم يكن يعرفه أسلافنا ، غايته أن يرتبط الكاتب بمجتمعه ويكتب عن عصره ويدرس مشكلاته . ولهذا الأدب قواعده بل سننه التي يجب أن يلتزمها الصحفي . وإذا كانت البلاغة لم تدرس إلى الآن هذا النوع من الأدب فذلك لأنها تبني قواعدها على حال اجتماعية قد مضى عليها أكثر من ألف سنة . ومن هنا عقم هذه القواعد في عصرنا وخيبة نتائجها .

قواعد البلاغة القديمة تعلمنا كيف نكتب في جد الجاحظ أو هزل الحريري ، ولكن الصحفي الذي يكتب عن شئون البورصة ، أو الفيتامين الجديد في الخميرة ، أو مناقشات مجلس النواب ، أو نقل البريد بالطائرات ، أو القنبلة الذرية يجد قصوراً عظيماً في لغتي الجاحظ والحريري بلاغتهما .

وإذا كان الأديب يكبر بمقدار مسئولياته ، فإن الصحفى هو أعظم الأدباء فى عصرنا . لأن أعظم ما يؤثر فى الجمهور ويغيره ويوجه للخير أو للشر هو الجريدة ، وذلك لقوة الإيحاء الذى ينشأ من تكرار ظهورها كل يوم أو كل أسبوع .

ولذلك أول شرط لبلاغة الأدب الصحفى أن يكون من يمارسه أميناً لقرائه مخلصاً لمثلياته ومبادئه . لايخون ولا ينحرف ، لأن فى خيانته أو انحرافه إفساداً للقراء وبعثاً للشر . ثم يجب أن يكون على دراسة مثابرة للمشكلات العامة . إذ هى موضوعه الذى يتجدد كل يوم . ومهمته هنا أن ينير ويرفع مستوى البحث من ظلام الجهل والعامية إلى نور المعرفة والثقافة . وأيضاً من العاطفة إلى التعقل . ويجب أن تكون له أهداف فلسفية يتجه بها ويوجه قراءه إليها . والفلسفة ألزم للصحفى مما هى لأى أديب آخر لقوة التوجيه التى يملكها أكثر مما يملكها أى أديب آخر .

وقد يضحك قارئ الصحيفة الأسبوعية المبهرجة من كلماتى هذه : ولكنى أذكره بأن أعظم من مارسوا الصحافة فى مصر هو لطفى السيد وهو فيلسوف يهتم بأرسطوطاليس كما يهتم بترقية الزراعة أو الصناعة . وكذلك الشأن . على مدى أوسع فى صحف أوربا وأمريكا . وصحافة بلا فلسفة هى صحافة العوام يكتبون للعوام .

لقد عرفت أديبين صحفيين من أعظم أدباء العصر هما برنارد شو و هـ . ج ويلز كان كلاهما يكتب فى الصحف ويؤلف الكتب . ولكن مؤلفاتهما . هى أدب صحفى ممتاز . ولأنه ممتاز ، قد جمع وحفظ فى صيغة الكتاب . وما من كتاب ألفه هذان الاثنان إلا وهو يعالج مشكلة بشرية أو اجتماعية أو اقتصادية يجب أن تعالجها الصحيفة اليومية أو الأسبوعية . ومؤلفاتهما قد لا تقل عن مائة مجلد . وقد كان من حظى أن أرافقهما

وأتعلم منهما نحو نصف قرن . فقد كتب برناردشو عن فضائح الإنجليز في دنشواى ، وعن الأثمان والأسهم في البورصة ، وعن المجلس البلدى في لندن ، وعن الحب والزواج ، وعن الإلحاد والإيمان ، وعن التأميم ، وعن الحرب والسلم ، وعن اللغة والهجاء . وكل هذه الموضوعات صحفية . وكذلك الشأن في ه . ج . ويلز فقد كان آخر ما كتبه قبيل وفاته بأيام مقالا عن أخطار القنبلة الذرية . وقد دعا إلى الإيمان بالأديان بقوة وتكرار وإلحاح ، ثم رأى أن يدعو دعوة أخرى مضادة استغرقت سائر حياته . ولكنه كان مخلصاً حتى عندما نعده ضالا منحرفاً . وكان مخلصاً في الدعوتين لأنه كان متطوراً .

وحياة ويلز الأدبية منذ شرع يكتب حوالى عام ١٨٩٥ إلى وفاته في عام ١٩٤٥ هي تاريخ نصف قرن من التطور الذهني لكاتب عظيم إزاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية . ومؤلفاته الأولى كلها تفاؤل واستبشار بالمستقبل . . . العلوم تسود المعارف وتغربلها ، تزويد سلطة الإنسان على الأرض والماء والسماء ، الأمراض تنهزم وتنمحى ، المحصولات الزراعية تزيد وتلغى الجوع ، الروح التنظيمى يعم العالم بالاشتراكية والتعلم يزداد . أجل ، وسوف تؤلف لجنة عالمية تتصل بعصبة الأمم أو بالأمم المتحدة تؤلف موسوعة من نحو ثلاثين أو أربعين مجلداً ، ثم تترجم إلى جميع لغات العالم . وعندئذ تتداول جميع الشعوب هذه المعارف المتقنة بأرخص الأثمان ويدخل ويلز في التفاصيل فيقول يجب أن نؤلف هذه الموسوعة على مبدأ الورق السايب بحيث يستطيع المقتنون للموسوعة أن يستبدلوا بالأوراق التى قدمت وعقمت معارفها أوراقاً جديدة تحوى المعارف الجديدة وتبقى الموسوعة بهذه الطريقة يطرد تجددها على مدى السنين .

وهذا الاستبشار بالمستقبل يملأه طرباً . فهو داعية حب وخير

وإيمان حتى ليكتب عن الكوارث التى وقعت بأيوب ، وهو أيوب عصرى ، وليس توراتيًّا ، بحيث يذهب المال والولد والنسل والضرع ، يذهب كل شىء ولكن يبقى الإيمان . الإيمان بالله ملك الملوك .

ثم تأتى الحرب الكبرى الأولى فيخمد شىء من هذا اللهب . ولكن يبقى منه شىء كبير . إذا هو يؤلف لنا فى عام ١٩١٩ تاريخًا للعالم كله يقول فيه إننا أمة واحدة ، وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها ونخطط حركة المرور فيها . وإننا يجب أن نتهيأ لإيجاد حكومة واحدة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا . ولكن بعد عشر سنوات نرى هذا الاستبشار بالمستقبل يتقهقر ، فهو غاضب حانق يائس وهو يدعونا إلى مادية صرفة ، مادية منظمة يتوافر فيها الطعام والمسكن والمعرفة . ويقول إن هذا هو الدين . وبعد أن كان يستخرج من التوراة شخصية معذبة ينقلها إلى عصرنا ويثقلها الهموم والمتاعب وينتهى بها بعد كل ذلك إلى الإيمان والرضى والفرح ، يعود بعد عام ١٩٣٠ فيجمع أشياء أخرى من التوراة يهاتر بها ويسب ويقدح . حتى إذا بلغ عام ١٩٤٥ يعمه اليأس العلمى الذى كان أساس الأمل من قبل ، فيتحدث عن انقراض البشر بالقنبلة الذرية .

* * *

لقد عشت مع هذا الإنسان وأحببته ، وإليه أعزو روح الجد فى برنامجى الثقافى والآفاق الموسوعية فى معارفى ، والاتجاه الدينى الذى أتجهه فى الصحافة فضلا عن التأليف . فإنى أدرس جغرافية هذا العالم وتاريخه بالروح الدينى ، واهتمامى بما يجرى فى إسبانيا على أيدى الفاشيين ، أو فى الصين على أيدى الشيوعيين ، يفوق اهتمامى بشئونى الشخصية .

وأحداث العالم الكبرى يزيد وقعها فى نفسى على الكوارث التى تقع بشخصى . ومشكلة القنبلة الذرية هى أكبر من أن أقول إنها مشكلة لى . ولم أكره ولز إلا فى يوم واحد . وذكرى لهذه الكراهة يدل على أنها حزت فى نفسى حزًّا لم يبرأ إلى الآن ، ذلك أنه قال فى مقال صحفى إنه لو كان على سفينة ومعه برناردشو وبافلوف العالم الروسى ثم تعرضت السفينة للغرق واضطر إلى الاختيار بين إنقاذ شو أو إنقاذ بافلوف لأنقذ بافلوف دون شو !

وآلمتنى هذه الكلمة كما آلمت برناردشو كثيراً حتى إنه كررها فى مضض . وعندى أنه لو كانت نفس برناردشو من ذهب فإن نفس ويلز من طين ، حتى لو قيل لى إن الطين أنفع من الذهب . وأستطيع أن أقول لروح ويلز : أنت روح من طين ، لأن ويلز لم يجن هذا الجنون المقدس الذى رأيناه من شو فى حادث دنشواى . أين كانت بشريتك التى تزعم أنها ديانتك السيامية حين شنق أبناؤنا وجلدوا أمام أمهاتهم وأبنائهم وزوجاتهم وآبائهم ؟ لقد كنت أخرس حين نطق ، بل حين صرخ برناردشو .

وبافلوف عالم سيكولوجى ، وشو أديب . ولكنه فى أدبه يعلو على العلم ، ونزعة ويلز العلمية هى التى أسقطته هذه السقطة .

نشأ ويلز فى بدرون الحياة الاجتماعية إذ كانت أمه خادمة فى منزل لأحد الأثرياء ، وأول ما يذكره من ذكريات الطفولة هو رؤيته لأحذية الناس وهم يسيرون على طوار الشارع وهو قاعد فى أسفل الطبقة البدرونية يتطلع من النافذة إليهم فيرى أحذيتهم دون وجوههم .

وله كتاب أو رسالة تدعى « تعس الأحذية » .

واستطاع أن يتعلم ويصل إلى كلية العلوم حيث تخصص فى البيولوجية

« أى علم الحياة » وألف كتاباً عن تشريح الأرنب . وكان الدكتور هيوم، الذى كان يدير مصلحة الجيولوجيا فى حكومتنا ، زميله فى الكلية .

وحوالى عام ١٨٩٠ حين شرع ويلز يكتب كانت الأصداء للمناقشات الفلسفية والعلمية لنظرية التطور تتردد فى ذهنه، ومن هنا مؤلفاته الأولى التى تنزع إلى الخيال العلمى وتجرى على نسق « جول فيرن » ، وإن تكن على مستوى أعلى . وهى تتدرج من التافه مثل قصة « طعام الآلهة » إلى الجليل مثل « حرب العوالم » .

ورويداً رويداً ينجذب العالم ويلز إلى الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة بضغط الحوادث ، إذ هو يعيش فى مجتمع حى ويقرأ صحفاً مرآوية تنقل إليه صورة العالم المعذب بالإمبراطورية البريطانية والاستعمار الفرنسى ، والتعطل الذى يشقى ملايين العمال ، والجهل الذى يعم الفقراء ، والمرض الذى يبليهم ، فيشرع فى الدراسة وينتهى إلى تأليف كتاب « عوالم جديدة للقدامى » يقول فيه إن العلاج الوحيد للعالم هو الاشتراكية وليس شىء غير الاشتراكية .

وهنا يتعين موقفه . فهو اشتراكى ارتقائى يسارى . وعندئذ يدعوه زعماء الجمعية الفابية كى يكون عضواً فيها حتى تنتفع بمواهبه الأدبية فى نشر الاشتراكية . ويدخل الجمعية ويلقى المحاضرات ، ولكنه يصطدم ببرناردشو وينهزم فيخرج من الجمعية . فهذه هى الحزازة الأولى بين الأديبين ، وقد تركت على لسانه مرارة جعلته ينطق بتلك الكلمات الحاقدة عن موت برناردشو وحياة بافلوف .

وكان الخلاف بشأن برنامج الجمعية ، فإن ويلز أصر على أن يكون ضمن هذا البرنامج وفى أساسه تحرير المرأة . والتحرير هنا يزيد عشرة أضعاف على مايفهمه القارئ المصرى عن معنى التحرير . وعارض برناردشو

هذا الاقتراح لا لأنه يكره التحرير بل لأنه كان يرى أن الجمعية يجب أن يقتصر نشاطها على نشر الاشتراكية ، وحسبها هذا دون التطلع إلى أية دعوة أخرى .

حدث هذا حوالى عام ١٩٠٦ ، ومن ذلك العام إلى يوم وفاته في عام ١٩٤٥ نجد في ويلز المجاهد المتوسع في جهاده ، وجهاده هذا للعالم وليس لبريطانيا وحدها فهو يدعو إلى إيجاد قانون أساسى عام ينص فيه على حق كل إنسان . فلكل إنسان الحق في العيش وفي العمل ، كما أن له حق التفكير والعمل ، وكذلك الحق في المعرفة . أى يجب أن يتعلم .

وهو يدعو إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال في نمو وارتقاء حتى تتقاص الحكومات العديدة القائمة وتزول في حكومة عالمية واحدة وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكاً مشاعاً للأمم ، للبشر . أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم في إنجلترا أو عيون البترول في إيران ، وغابات أفريقيا والهند ، ووحوش الغابات ، باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هى ملك عام مشاع للبشر . وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها .

وهو يطلب التنظيم العلمى للإنتاج ، ويذكرنا أن مدينة برمنجهام وحدها تستخدم من القوة في أيامنا لإنتاج مصنوعاتها مقدار ما كانت تستخدمه بريطانيا جميعها أيام الملكة إليصابات حوالى عام ١٦٠٠ ، وأن العلم هو الذى أدى إلى ذلك وأننا حين نستخدم العلم في الزراعة والصناعة والبناء في أقطار العالم فإن الجوع يزول كما أن الوقت يتوافر لجميع أبناء البشر كى يهنأوا بالسعادة وكى يتعلموا طوال أعمارهم .

والتعلم هو وسواس ويلز ، وسواسه النبيل ، فإنه يرى أن التنظيم العلمى لأحوال عالمنا جدير بأن يهيئ الفرصة لكل إنسان كى يحظى بتعليم جامعى .

وبداية هذا التعليم هو إخراج الموسوعة التى أشرنا إليها .

لست أشك فى أن هناك من يحبون أن يسألونى حين أكتب عن أحد الأدباء عن قيمته الفنية ، وإذن ما هى قيمة ويلز الفنية ؟

وجوابى أن الفن ، أى العناية بالتعبير الجميل وتصوير الأهداف والصور الجميلة ليست فى ويلز أو شو أو تولستوى أو أى أديب آخر أحببته ، وإنما أحببته لأنه انغمس فى مهمة أكبر وأخطر وأجل وأسمى من هذا الذى يسميه البادئون والذاهلون والمموهون فناً .

أين يكون الفن فى حبل المشنقة الذى يمسح بالصابون كى يأخذ بعنق المشنوق ، ويضغطه كما يقول تولستوى ؟

أين يكون الفن فى البغى تبيع عرضها لكل قادم كى تجد القروش التى تأكل بها كما يقول برناردشو ؟

أين يكون الفن فى ويلز وهو يكافح من أجل التنظيم العالمى ويبحث الوسائل لإلغاء الحروب والجوع والجهل ؟

الحق إن قصص هـ . ج . ويلز ودرامات برنارد شو هى جميعها لإبراز الأفكار ، وليست لإبراز الأشخاص . وهى جميعها لعرض المشكلات وليست للفن .

لقد عالج هؤلاء المؤلفون أقذارنا وقروحنا ، ولطخوا أيديهم فى المعالجة بالوحل والدم ، كى نتعلم النظافة والصحة ، فلم يجدوا مع الوحل والدم مجالا للفن .

فإذا ذكرت لى أن دستوفسكى قد عالج الوحل والدم وكان مع ذلك فناناً ، فإنى أجيب بأنه لم يكن من البشر إنه كان قديساً فوق البشر .

وأخيراً يجب أن نختم الكلام عن ويلز بأن نتعمق قلبه ونسأل عن إيمانه وديانته .

والقارئ لمؤلفاته العديدة يستطيع أن يقول إن هذا الإيمان أو هذه الديانة هما العالمية أو البشرية من حيث إن تنظيم العالم يؤدى فى النهاية إلى خدمة البشر . وقد انتهى إلى النفور من الغيبيات ، بل إلى القول بضرورة مكافحتها وألف فى ذلك رسائل وكتباً . وعند ويلز أن الدين : وهو الدين البشرى : ضرورة حتمية للنفس ، وهو يعرفه بأنه تشوف الإنسان إلى ما هو أعلى منه وسعيه لمصلحة عالمية تعلو على مصلحته الشخصية . وهو يقول هنا إنه ليس هناك هناءة أو سعادة إلا حين نلغى ذواتنا ومصالحنا فى سبيل ذات ومصلحة تعلوان علينا . وهذه الذات هى البشرية جميعها وهذه المصلحة هى العالم كله .

والهدف الذى يهدف إليه هذا الإيمان هو بكلمات ويلز نفسها : « الانتصار المتدرج على الجوع والعطش والمناخ والمادة ، والقوة الآلية والألم الجسمى أو العقلى ، والفضاء والمسافة والوقت . وعلى الأشياء التى تبدو لنا كأنها قد فقدت فى الماضى ، وكذلك على الأشياء الممكنة فى المستقبل . وسيبقى نوعنا ، النوع البشرى ، فى امتداد هذا الكون الأوسع كى نعيش فيه على وجدان أكبر .

كلمات مادية صرفة ، ولكنها تهدف إلى خدمة البشر . فاختراع آلة « لتكييف الهواء » هو انتصار على المناخ ، فهو دين . ومخترع البنسيلين هو رجل دين أيضاً لأنه تغلب بهذا العقار على ألم جسمى أو عقلى .

فإذا سألنا ويلز : ماهى هذه البشرية التى تهدف فى ديانتك إلى خدمتها ؟ لأجاب بأنها البشرية المتدرجة فى التفوق ، وقبل سنين دعته جريدة الماتان الفرنسية إلى أن يدلى برأيه بشأن المشروع الذى كانت تعده الحكومة كى تصدر قانوناً لمساعدة العائلات على زيادة التناسل فكتب يقول بأن الآباء الذين يستحقون هذه المساعدة هم الأكفاء جسما وعقلا. أما من كانوا غير أكفاء : أى من كانوا ناقصين فى صحة الجسم أو صفاء العقل ،

فليس من المصلحة البشرية أن ندعوهم إلى زيادة التناسل . وهذا اتجاه تطورى داروينى . أجل ، إن نظرية التطور قد عمرت العالم المثقف بروح دينى جديد لأن الإنسان يجب أن يعلى عليه إذ هو معبر بين الفرد والسبرمان .

ويلز فيلسوف الصحافة ، هو ثمرة الاندفاع العلمى فى القرن التاسع عشر ، قد وجد فى ديمقراطية القرن العشرين الجديدة ميداناً لتعاليمه . لأن هذه الديمقراطية عممت التعليم بالمدارس . حتى أصبح العالم الإنجليزى يطبع فى العام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد ، وهذا زيادة على مئات الجرائد اليومية والمجلات التى تعلم وتثقف هؤلاء المتعلمين الديمقراطيين . وكان ويلز قوة توجيه لهم . وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا ، هو قريتنا . هو حديقتنا . وعلينا أن نصلحه وننظمه .

وإنى أكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثانى من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها . ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حرباً قد تقع بين دولتين أو ثلاث دول لا شأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا . فإن حرباً تقع بين روسيا وأمريكا هى حرب أهلية للعالم كله ، هى قتال جنونى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية ، هذا العالم ، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم . . . هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته .

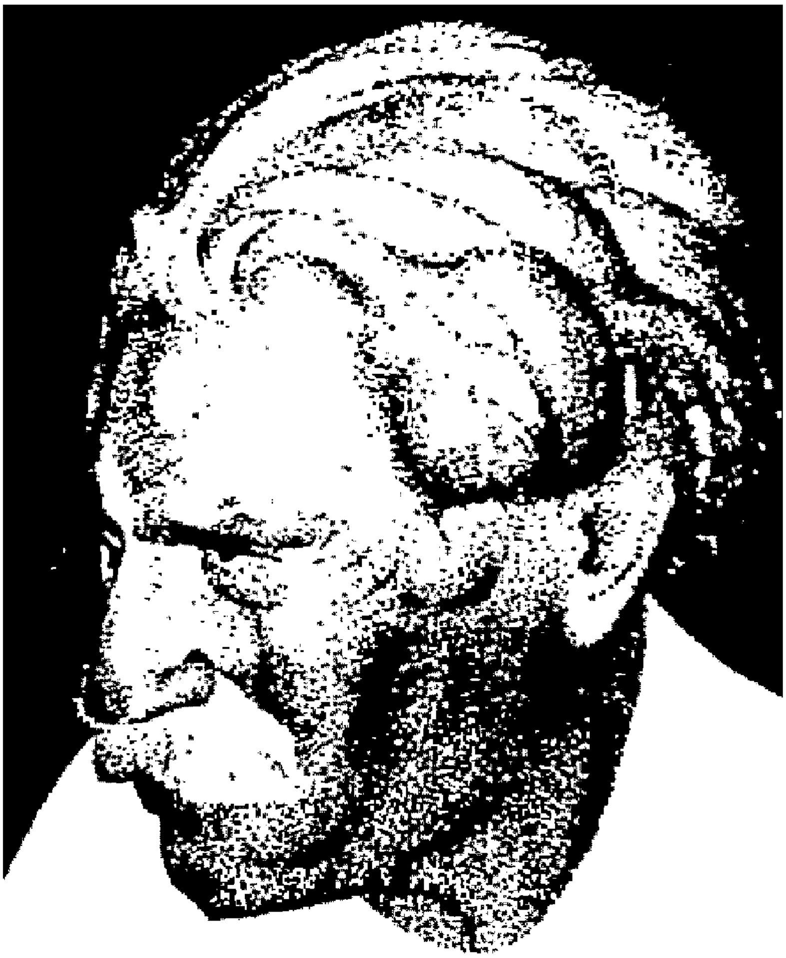

شفايتزر
صديق الزنوج

السيكلوجية هي التجسس على النفس . وقد تعودت . بما كسبته من الدربة السيكلوجية ، أن أتجسس على المؤلفين وأن أسأل عن حياتهم وسكانتهم الاجتماعية ، وتربيتهم ، حين أرغب في الوقوف على البواعث التي حملتهم على الدعوة إلى فكرة معينة أو اتخاذ أسلوب خاص . ثم كثيراً ما أحس ، كما سبق لي أن أشرت إلى ذلك ، أن حياة المؤلف هي نفسها كتابه الأول ، وأنه إذا لم يكن قد أحسن تأليفها فإنه لن يحسن شيئاً آخر . وأن مشكلاته الخاصة التي عاناها في حياته هي نفسها المشكلات العامة التي عالجها في مؤلفاته .

اعتبر مثلا تولستوى . فإنه جحد مناعم الحضارة ، والانغماسات الكثولية والجنسية ، وحياة الترف والثراء . بل إنه بعد أن قضى سنى

النضج والإيناع وأخرج المؤلفات الفنية البديعة ، عاد فجحد الفن وعده استهتاراً يجب أن نتجنبه وأن نقنع بسذاجة العيش بل بالفقر والكفاف .

وكل هذه المؤلفات كانت ثمرة حياته أو مرآة حياته . فقد انغمس فى اللذات الجنسية أيام شبابه ثم نفضها وجحدها . ولكنه أحس من التوترات ما جعله يكافح جسمه ويضغط أعصابه . وكانت مؤلفاته تفريجاً أو شرحاً أو علاجاً لهذه التوترات والضغوط . وكان يقول بأننا يجب أن نتجنب المرأة إلا بغية التناسل . ثم كان ينهزم أمام هذا العزم فيطلب زوجته ويترضاها . وبلغ من كراهته للفن أن قاطع تأليف القصة باعتبارها تسلية وخيمة تنأى عن جد الحياة . ولكنه، وهو فوق الثمانين ، كان يؤلف القصة ثم يخبئها فى درج المنضدة . وكان يحاول أن يعيش بالكفاف ، وأن يحترف صنع الأحذية وأن ينزل عن أرضه للفلاحين . ولكنه كان ينهض فى الفجر و « يأمر » خادمه بأن يلجم جواده ويخرج به إلى الحقول فيعدو به فى وجه الريح ويلتذ هذه « السيادة » على الارص بل هذا الكفاح للريح والطبيعة .

وليس شك أنه كان ، بعد أن يعود إلى غرفته ، يندم على ضعفه ويحاول أن يكف ، لا بل أن يربى نفسه من جديد ، فيخرج من درج المنضدة المشرط والأديم كى يصنع حذاء سخيفاً ركيكاً لأحد الفلاحين .

وما أعتقد أن حملته على شكسبير كانت إلا تفريجاً عن إحساسه بالخطيئة التى كان يرتكبها هو بانغماسه فى الفن . فإن شكسبير كان فناناً عظيماً ، وكان تولستوى فناناً عظيماً أيضاً ، وقد رأى صورته فى شكسبير فلعن فى شخصه هذا الشاعر الإنجليزى العظيم . وهو إنما كان يلعن نفسه ويحاول التخلص من هذه المتناقضات التى كانت تحطم أعصابه . وأى تناقض أكبر من هذا الانفصال بين ناس يعيشون فى ترف الفن يؤلفون الأشعار والقصص ، وبين الملايين الكادحة التى تحيا بلا حياة وبلا فن ؟

إن عقولنا تزداد فطنة وبصيرة حين نتعمق حياة المؤلف ونسأله . من أين لك هذا ؟

من أين لك هذه الأفكار ؟ وما هى الأحداث التى نزلت بك ثم أنتجت هذه الأفكار فى مؤلفاتك ؟ ومن أين لك هذا الأسلوب ؟ وما هى العلاقة بينه وبين مكانتك الاجتماعية ؟ هل أنت من الشعب تخاطب الشعب بلغته؟ أم أنت فى مكانة اجتماعية عالية تعلوعلى الشعب فتتعالى عليه بأسلوبك ؟

إنى حين أجد مؤلفاً يبغض التعصب الدينى ، ويكافح الغيبيات ، ويدعو إلى مذهب العقليين ، ويقول بضرورة الاشتراكية ، أسأل : هل هو فرد فى طائفة من طوائف الأقليات تعانى ضغطاً اقتصادياً أو اجتماعياً بحيث يحب هذه المبادئ وينقلها إلى الوجدان الفنى ؟ أليست علة ذلك أنه قد أحس أن الغيبيات تفصل بين البشر ، وأنه لذلك بشرى العقيدة اشتراكى المذهب ؟

واعتقادى أنه إذا كان رجل السياسة مكلفاً أن يجيب عن سؤالنا : « من أين لك هذا ؟ » بتقديم الحساب المفصل عن ممتلكاته ، فإنه يجب على الأديب أن يجيب عن مثل هذا السؤال بأن يكتب تاريخ حياته حتى نفطن إلى البواعث ونتعمق الأسرار ونتربى ونستبصر بكوارثه .

* * *

ولكن هناك من المؤلفين والمفكرين من لا يحوجنا إلى مثل هذا السؤال لأن حياتهم مكشوفة . وقد كشفوها هم بأعمالهم أو كفاحهم . ولذلك نحن نقرأ سيرتهم فى هذه الأعمال أو هذا الكفاح لنسترشد ونتعلم ونقتدى ، فضلا عن النور الذى نستضيء به من مؤلفاتهم . وهذا هو الشأن فى ألبيرت شفيتزر .

هو مؤلف فى الأدب والاجتماع والفلسفة والمسيحية قد استطاع أن ينير الأذهان ويهذب الحيوان فى الإنسان . ولكنه زيادة على المؤلفات قد عمل وكافح ، حتى إننا لنجد فى هذا الكفاح ما يغنينا عن قراءة مؤلفاته ، كما نجد فى كفاح غاندى ما يغنينا عن مؤلفاته .

قضى شفيتزر قرابة أربعين سنة وهو فى « لا مبارينيه » فى سنغال الفرنسية بأفريقيا الغربية يعالج أمراض الزنوج بالمجان ، ويجمع لهم التبرعات من أوربا وأمريكا .

وقد بنى لهم مستشفى ، وأعد له كل ما يحتاج إليه من عتاد صحى وعلاجى إلى الأطباء الذين أقنعهم بترك أوربا والرضا بالعيش لخدمة المرضى من الزنوج فى شمس أفريقيا المحرقة .

وكان هذا عملا جليلا أرصد له حياته . وعاد إلى بلاده وهو أعمى إذ لم تتحمل عيناه شمس أفريقيا . ولكنه عاد بعد أن أنجز وعد حياته كما ينجز أحدنا وعداً من وعود المجد والشرف والإنسانية .

وهو يقيم هذه الأيام (عام ١٩٥١) فى قريته القريبة من « استراسبورج » ينتظر الموت بعد أن جاوز الثمانين .

كان ألبرت شفيتزر صبيًّا ألمانيًّا نشأ فى أسرة ألزاسية حيث تتاخم ألمانيا فرنسا ، وأحياناً تخالطها . وكانت نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية . وقضى ألبيرت تلمذته والتحق بالجامعة فى استراسبورج وحصل على الشهادة الجامعية فى الإلهيات . ولكنه طوال دراسته يكب على الموسيقا دراسة ومرانة . ونبغ فى العزف على الأرغن ، وهو أكبر آلة موسيقية لاتخلو منها كنيسة كبرى فى أوربا . واحتضان الكنائس للموسيقا قد رفع من قيمة هذا الفن وأكسبه الاحترام الذى لانجده للأسف فى بلادنا .

وكان يحصل من العزف فى الكنائس على أرباح كبيرة . وذاع اسمه

حتى كانت الكنائس الكبرى تدعوه فى الأعياد والحفلات . وله مؤلفات عن باخ وعن الموسيقا تعد صفحاتها بالآلاف .

وإلى هنا ويتساءل القارئ : رجل حصل على الثقافة وعلى الحرفة وعلى الكسب . ما الذى بقى من حياته يذكر فيؤثر ؟

والجواب أن الباقى كان كل شىء . فإنه جحد حياته الماضية كلها وآثر عليها كفاحاً إنسانيًّا يحتاج إلى الدم والدموع ؟

فقد تساءل شفيتزر وهو شاب : ماذا أفعل كى أخدم الزنوج الذين سحقهم الاستعمار ، البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى ، وكيف أستطيع خدمتهم ؟

وأجاب المبشرون بأنه يمكنه أن يرحل إلى أفريقيا حيث يبشر الوثنيين من الزنوج بالمسيحية . أليس هو دكتور فى الإلهيات ؟

ولكنه أحس مرارة التهكم فى هذا الاقتراح . فإنه كان يعرف ، بل يوقن ، أن كثيراً من المبشرين كانوا أعواناً للاستعمار . وزيادة على ذلك تساءل هو : كيف نقدم للزنوج تعاليم المسيحية وهم قد عرفوا أن هؤلاء المسيحيين الذين تعلموا هذه التعاليم هم أنفسهم الذين ينهبونهم ويذلونهم ويحرمونهم الثقافة والمدنية والعدل والشرف ؟

لا . إنه لن يكذب عليهم ، ولن يزعم لهم أن المسيحيين المستعمرين أشراف . وإذن ماذا يفعل ؟

لقد بلغ الثالثة والثلاثين ، وكل ما يحذقه من المعارف دراية ومرانة عظيمتان فى فن الموسيقا . وأيضاً فقهيات جدلية فى المذاهب المسيحية . وأنها لسوف تكون سخرية حقًّا أن يقصد إلى الزنوج ويعرض عليهم هذه البراعات !

لا إنه لن يفعل ذلك ..

وحزم رأيه ، ثم حزم أمتعته ، ورحل من ستراسبورج إلى باريس . وهناك عاد تلميذاً ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، والتحق بكلية الطب .

إنه حين يكون طبيباً يستطيع أن يرحل إلى أفريقيا وأن يعالج المرضى من الزنوج حتى يعرفوا أن بين الأوربيين من يواسى جراحهم ويعالج أمراضهم كما عرفوا من آلاف الاستعماريين المجرمين .

وبعد أربع سنوات نال شهادة الطب . فحزم رأيه وحزم أمتعته ورحل إلى لا مبارينيه فى سنغال الفرنسية ، وهناك أسس مستشفى ، وأقام مع زوجته يخدمان الزنوج نحو أربعين سنة عاد بعدها فى سنة ١٩٤٩ إلى قريته التى عرفها وهو صبى بالقرب من ستراسبورج . عاد وهو أعمى .

وإلى هنا نستطيع أن نقتنع بأننا عرفنا إنساناً باراً بالإنسانية .

ولكن شفيتزر ، كما كان رجل عمل وكفاح ، كان مفكراً عميقاً يبحث ويستقصى ويحاول أن يهتدى إلى يقين . ومن هنا مؤلفاته العديدة . فقد ألف عن الموسقا . ثم ألف عن المسيح وحوارى المسيح بولس.

ولا بد أنك ، أيها القارئ ، ستقول إن ها هنا إنساناً مسيحياً قد درس الإنجيل وعمل بتعاليم المسيح . وهذا حق . ولكنه ليس كل الحق .

ذلك أن شفيتزر ألف كتاباً عن المسيح الذى أحبه ، وعمل بتعاليمه . ولكنه عالج حياته بمشرط فرويد بما لا يرضى المسيحيين . وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت ألوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيقه ، ولكنه ، أى شفيتزر ، يقول ، وكأنه يحس برعشة الاشمئزاز الذى أحدثه تحليله السيكلوجى القاسى : وماذا علينا أن نؤمن بالفلسفة العظيمة حتى ولو كان داعيتها ..

إنها مأساة . وإننا نحن البشر لا نطيق كل الحق ...
وإذن ما هو اليقين الذى يستند إليه شفيتزر ؟

ما هو اليقين الذى يحمله على أن يترك الثراء والمجد والراحة والمدنية ويرحل إلى أفريقيا ، ويقضى هناك أحسن سنى عمره فى خدمة الزنوج بعد أن يستعد لخدمتهم بالدراسة أربع سنوات فى جامعة باريس ؟

هذا اليقين هو احترام الحياة . إننا يجب أن نحترم الحياة كائنة ما كانت ولا نقتل نملة إلا إذا حتمت الضرورة ذلك .

ألسنا نحن الأحياء جميعاً ، من العشب الذى ندوسه إلى الجواد الذى نركبه ، إلى الكلب الذى يرافقنا ، إلى الشجرة الخضراء ، ألسنا جميعاً ننتمى إلى أصل واحد ونسير فى موكب التطور نحو المستقبل ؟

ثم احترام الحياة هو مفتاح يهيئ لنا التفكير السليم فى تطور المجتمع البشرى ، فهل نقنع من شفيتزر بذلك ؟ إنه يستطيع أن يقول انظروا إلى حياتى .

لقد أحببت شفيتزر على الرغم من العلقم الذى ملأ به فمى . وعلى الرغم من السحب الباهرة الناصعة التى أحالها إلى قتام أسود . ورضيت وأنا كاره أن أستمع بعقلى إلى أقواله ، كما هدأت نفسى إلى عجزى عن الرد عليه . وتقبلت دعوته إلى الحياة فى ترحيب وسرور ، لأن دراستى للتطور قد جعلتنى على إحساس عميق بوحدة الحياة نباتاً وحيواناً وإنساناً . ثم هو بعد كل هذا ، لم يعترض بكلمة واحدة على سمو الأخلاق التى دعا إليها المسيح .

چون ديوى
فيلسوف العلم

كنت أتحدث ذات مرة مع الدكتور كليلاند مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن مركب أوديب أو مركب النقص لا أدرى ، فأنصت إلى ثم رفع عينيه فى وجهى يسأل فى خبث: هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟

وبهذا السؤال أفحمنى وأضحكنى معاً .

فإنى أحسست أن السؤال أمريكى » هو سؤال ينبع من الوسط الأمريكى الذى يعتمد على العلم ، ويحيا على أساس المعارف العلمية ، وهو التجربة . والإحصاء يقوم فى علم الاجتماع مقام التجربة فى الطبيعيات أو الكيمياء من العلوم المادية .

ويجب أن نسلم بأن الكثير من معارفنا السيكلوجية لم يرتفع إلى مقام

العلم . وقصارى ما نقول عن هذه المعارف إنها « فروض » ننتفع بها فى تفكيرنا . وأن هناك ما يرجح صحتها لأننا ، حين نعمل بها ، نجد النتائج الحسنة .

ولكنها ليست علماً ، وإنما العلم هو ما قام به بافلوف الذى جرب التجارب فى الكلاب واستنتج النتائج . هو أيضاً تلك الحقائق التى استطاع السيكلوجيون أن يستخرجوها بالإحصاء بالتجارب التى قاموا بها بين الطلبة ، أو العمال ، أو الأزواج ، أو المسجونين ، أو نحوهم .

والعلم هو شىء جديد فى عصرنا . إذ ليس هو محض التفكير والاستنتاج . وإنما هو التخيل أولا ، ثم التجربة باليد ، ثم التفسير بما يتلاءم مع النتائج من هذه التجربة .

وشيوع الأسلوب العلمى فى أيامنا قد جعل الفلاسفة والأدباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وأدب ، ولذلك أصبحت الفلسفة « تجريبية » .

وصاحب هذا الرأى أو هذه الدعوة إلى اتخاذ الأسلوب العلمى فى الفلسفة هو جون ديوى الذى مات قبل سنتين والذى يعد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين ، كما أنه مؤسس المدارس « الارتقائية » الجديدة التى دعا فيها إلى أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ أو الطالب بعد ذلك . وفلسفته عن التعليم تندغم فى فلسفته عن الحياة .

وأنا أحاول هنا أن أشرح فلسفته التى تأثرت بها ، والتى ما زلت أسترشد بها وأعتمد على أسلوبها فى حياتى الذهنية .

وأبدأ بما أستطيع أن أسميه « مفتاح » التفكير الفلسفى « ديوى » وهو أنه ليس فى هذا الكون ، شىء كائن ، أى ثابت لا يتغير . لأن كل ما فيه

من ناس أو حيوان أو نبات أو جماد هو أشياء « صائرة » أى أنها فى تغير لا ينقطع . أو بكلمة أخرى هى فى تطور .

نحن ، وكل شيء حولنا ، فى صيرورة تغير ، ولسنا فى كينونة ثابتة .

واعتقادى أن الذى غرس هذه الفكرة فى الأذهان العصرية هو داروين حين أثبت أن التطور هو الأصل والمبدأ فى عالمنا .

ومادام التغير أو التطور هو الأساس لوجودنا فيجب لذلك أن نقول بالتجربة أى التجربة فى الفلسفة ، والتجربة فى الاجتماع ، والتجربة فى التربية .

ذلك أن مجتمعنا ليس نهائياً ، إذ هو سيتطور . ومادام هذا شأنه يجب أن نتناوله بالتغير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير .

هذا هو المفتاح الأول . أما المفتاح الثانى الذى يفتح لنا أبواب الفلسفة عند ديوى فهو أن الفصل بين الماديات والمعنويات الذى قال به أفلاطون ليس حقيقة وإنما هو وهم . فالمادة والروح ، والجسم والعقل ، والفكرة والمادة ، كلها شيء واحد .

وهو يجبهنا بالقول بأننا لم نعرف قط عقلا بلا جسم ولا فكرة بلا مادة .

أما المفتاح الثالث فهو التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء موقتة ، أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط . وهى ليست نهائية . ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة . لأن هذه الأشياء فى تطور . وقصارى ما نستطيع أن نقوله عن المعارف البشرية إنها « آلة » و « وسيلة » نفهم بها الأشياء . وغاية هذا الفهم غير النهائى إنما هى التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر .

لو كانت الأشياء ثابتة ، ولو كان الكون ثابتاً ، ولو كانت عقولنا

ثابتة ، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتاً نهائياً . ولكننا نحن جميعاً فى صيرورة ، نصير ونتغير ، ولذلك فإن هذا الفهم أيضاً سيتغير ولا يمكن أن يكون نهائياً .

وما عندنا من فهم عن الكون والأشياء إنما هو صورة وقتية ننتفع بها ، ويجب أن ننتفع بها فى استخدام قوى الطبيعة لمصلحةالإنسان .
لا . ليست الغاية من الفلسفة أن نعرف أسرار الطبيعة ؛ وإنما هى أن نستخدم قوى الطبيعة .

أما المفتاح الرابع فهو أن الذكاء البشرى اجتماعى .
فما عندنا من أفكار وآراء وعقائد ، وعواطف ، وفلسفات ، إنما مرجعها جميعها إلى المجتمع الذى نعيش فيه ، وكان يمكن ديوى هنا أن يقول إن اللغة اجتماعية وإنها الوسيلة للذكاء إذ لا يستطاع التفكير بلا لغة .

هذه هى الأسس لفلسفة ديوى التى يسميها « الآلية » أى أن الفلسفة يجب أن تكون آلة أو وسيلة للفهم وللتسلط بهذا الفهم على الطبيعة .

وربما يكون من الحسن أن ألخص هذه الأسس الأربعة فيما يلى :
١ — أننا وكل شىء حولنا فى صيرورة ولسنا ثابتين على حال لا تتغير .

٢ — كل ما فى هذا الكون هو وحدة لا تنقسم . فليس هناك فرق بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الحياة والمادة ، ولا بين الجسم والعقل . بل ليس هناك عقل مستقل أو نفس مستقلة .
٣ — معارفنا عن الأشياء موقتة ، إذ هى فى تغير كما أن عقولنا التى نعرف بها فى تغير .

٤ — الذكاء البشرى اجتماعى أى أننا نبعث بنظرياتنا وعقائدنا وأفكارنا بقوة الإيحاء الاجتماعى الذى ينغرس فى نفوسنا فى المجتمع الذى نعيش فيه .

هذا هو ديوى الفيلسوف . فما هو ديوى المربى ؟

إن شهرته فى التربية أكبر من شهرته فى الفلسفة . وقد دعته تركيا وروسيا والصين كى ينظم لها وسائل التعليم . وإليه تعزى هذه الأساليب الجديدة فى التعليم فى الولايات المتحدة نفسها .

التربية عند ديوى هى النمو الذهنى . ولكن لما كان الذهن . فى كل حال . اجتماعياً . فإن المدرسة يجب أن تكون اجتماعية . فإذا كان المجتمع الأمريكى مثلا يتنقل أفراده بالسيارة فإن التلميذ يجب أن يتعلم قيادة السيارات . وإذن يجب على المدرسة أن تخلق لتلاميذها اختبارات اجتماعية بحيث يختبرون ويحاولون حل المشكلات كما لو كانوا كباراً على اهتمام يقظ بكل ما يحدث فى بلادهم بل فى الدنيا أيضاً .

المدرسة عند ديوى هى جنين المجتمع .

وحين تنطوى المدرسة على نفسها ، وتعلم النظريات وتلقى الدروس التى لا علاقة لها بالمجتمع العصرى ، حين تفعل ذلك ، تعود بالضرر على تلاميذها . ولهذا يجب ألا تنقطع بتاتاً عن الاتصال بالمجتمع .

وقيمة المدرسة عند ديوى تقاس بدرجة ما تخلقه فى التلميذ من الرغبة فى النمو . وهذا النمو هو فى النهاية تجدد ذاتى ، وهو دؤوب فى التوسع الذهنى بالاستطلاع والاختبار والدرس .

وكان أول مؤلفاته كتاب «المدرسة والمجتمع» فى عام ١٨٩٩ . واسم الكتاب يدل القارئ على الاتجاه الذى اتخذه ديوى فى فلسفته الاجتماعية . وفى هذا الكتاب يصف النشاط الذهنى بأنه لا يختلف من أى نشاط آخر نؤديه بعضلاتنا أى أنه تفاعل مع الوسط . هو أقرب الأشياء إلى الرؤية . فإننا حين نرى شيئاً بعيوننا لانحس أن الرؤية هى شىء داخلى فينا ، وإنما هى تفاعل بيننا وبين هذا الشىء . أى أنها حدث

قد حدث بيننا وبين هذا الشيء . وكذلك الشأن فى التفكير فإننا لا نفكر إلا لأننا قد التفتنا إلى شيء خارج عنا أو اهتممنا به .

وإذن ليست التربية ادخار المعارف ، وإنما هى غرس العادات الحسنة فى التفكير حتى نصل إلى أحسن النتائج . وأحسن النتائج هى استخدام المعارف كما لو كانت آلات لخدمة البشر أى المجتمع .

والهدف من التربية هو إيجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع .

وليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً . وليست هناك أخلاق مثلى دائمة . وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية . وما دامت غايتنا هى سعادة العيش فإذن يجب أن نجعل الملاءمة بين الفرد والمجتمع غاية التربية .

ثم ينتهى بأن الأخلاق المثلى فى مجتمع ما ليست سوى الأخلاق العلمية ، كما أن خير المجتمعات هو المجتمع العلمى .

وبالطبع هنا شطط . فإن ما يزعمه ديوى من أن غاية التربية يجب أن تكون الملاءمة بين المجتمع والفرد قد يحملنا على القول بأن هذه الملاءمة تقتضينا أن نعيش فيه حتى ولو كان ظالما . ورجل الثورة الذى يحتاج إليه رقى الأمم من وقت لآخر هو رجل لا يتلاءم مع المجتمع . ومن هنا ثورته ، وهى فضيلته .

والواقع أن ديوى رأى قبل أن يموت شطط هذا الاندفاع فى التساوق مع المجتمع . فقد عقد مؤتمر أمريكى بلغ أعضاؤه نحو ٦٠٠ من خريجى الجامعات وأساتذتها . وعرض هذا الاقتراح على المؤتمرين :

أيهما أنفع ، أن نعلم الطلبة اللغة الإغريقية أم نعلمهم فن الرقص ؟
فكانت الأغلبية الساحقة فى جانب الرقص .

وذلك اعتقاداً بأن المجتمع العصرى يحتاج الفرد فيه . كى يكون

متلائماً معه ، إلى الرقص . أما لغة الإغريق فيمكن الاستغناء عنها أو على الأقل تركها للمتخصصين .

لا ليست التربية الحقة أن نتلاءم على الدوام مع المجتمع .

والأغلب أن ديوى قد احتاج إلى الإكبار من شأن الاتصال بالمجتمع وإلى جعله الأساس للتربية كى يحمل المعلمين والمربين على أن يضعوا القيمة العملية فوق القيمة النظرية فى التربية . وعلى أن يجعلوا من المدرسة مجتمعاً يتهيأ فيه التلميذ أو الطالب لأن يكون فرداً اجتماعياً له عادات اجتماعية ارتقائية ، وليس محض خزانة للمعارف الكيماوية والرياضية والتاريخية والجغرافية .

عضو نافع متطور فى مجتمع ارتقائى متطور .

وقد نجح فى هذا الشأن ، فإن « المدارس الارتقائية » فى الولايات المتحدة هى ثمرة فلسفته هذه . وهى جنات للصبيان والشبان يجدون فيها سعادة كان أسلافهم يحرمونها بالدؤوب فى دراسة واختزان المعارف .

أعتقد أننى انتفعت كثيراً ، فى تربيتى الذهنية ، بجون ديوى .

وأول انتفاعى به أنه ألح على مراراً وتكراراً بضرورة الالتزام للأسلوب العلمى فى المشكلات الاجتماعية . وبالطبع كلنا يعرف قيمة الأسلوب العلمى ، ولكن هناك من الأفكار ما نحتاج إلى أن نكرر القول فيه ، ونبدى ونعيد ، حتى يصير عادة ذهنية ثابتة وليس فكرة عابرة أو طارئة .

* * *

« هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟ »

هذا السؤال الأمريكى الذى سألنيه « كليلاند » هو ما يسأله جون ديوى فى كل مشكلة ، ولذلك هو لا يفتأ ينشد التجربة التى تصحح منطق

الفكر المجرد وتوضيح ما لعله قد أهمله هذا المنطق .

التجربة فى كل شىء : فى الفلسفة ، وفى الأدب ، وفى الموسيقا ، وفى الأغانى ، وفى الاجتماع . . .

ولم لا ؟

أذكر أنه عندما عمدت إحدى الوزارات الماضية إلى إلغاء البغاء بالأحكام العرفية أنى طلبت التجربة . فقلت إننا نستطيع أن نلغى البغاء الرسمى فى القاهرة وندعه فى الإسكندرية مدة عـــام . ثم نقوم بتحقيقات بشأن الصحة الجسمة والنفسية بين فريقين مختلفين من الشبان آخر هذا العام . فإذا ثبت لنا أن الإلغاء فى القاهرة قد نقص من الأمراض الزهرية ولم يؤد إلى تفشى الأمراض النفسية وتفشى الشذوذات التى تنشأ من التوترات الجنسية ، فإننا نعمم الإلغاء فى القطر كله . أما إذا ثبت العكس فإننا نعيد البغاء الرسمى .

هذه تجربة اجتماعية نحاول بها حل مشكلة معينة فى مجتمعنا حلا علمياً يقوم على الإحصاءات .

وقل مثل ذلك فى الفلسفة التى تنشد صلاح العيش وتحقق السعادة للإنسان ، بل كذلك فى الفن الذى ينشد سعادة النفس وجمال الذهن وجلال العاطفة . تجرب ألحاننا وما يحدث فى نفوسنا من إحساسات الشجاعة والشهامة أو الخسة والدعارة . ونجرب أشعار شوقى أو حافظ أو أبى نواس أو المعرى ، بحيث نجعل أحد الفصول فى الأقسام الثانوية يدرس واحداً من هؤلاء ويستغرق فى إحساساته وقوافيه ، ثم نحقق آخر العام أثر هذا فى النفس والذهن والعاطفة ونخرج بالنتيجة التى توضح لنا ما نجهله .

بل كذلك التجربة فى أغانينـــا وموسيقانا بالمقارنة إلى الأغانى

والموسيقا الأوربية . أيهما تبعث على الانتعاش الروحي والصحة النفسية والإحساس الفني ؟

أجل . ليست التجربة في الكيمياء والطبيعيات وما إليها فقط ، إذ هي يجب أن تشمل حياتنا الاجتماعية كلها . نجرب في نظام الدولة ، ونجرب في نظام المجتمع . ونجرب في الزواج والطلاق . ونجرب في طرق التعليم وفي معايش الناس حين يمارسون الزراعة أو الصناعة . .

هذه واحدة مما تعلمت من چون ديوى . وأخرى هي أن المجتمع هو الذي يربينا . ولذلك هو يقول إن المجتمع كان يمكن أن يكون هو المربي الوحيد لنا بلا مدارس . ولكننا نحتاج إلى المدرسة كي نجمع الاختبارات المختلفة التي تزيد قيمتها على غيرها فنلتفت إليها دون غيرها مما هو أقل خطورة . وبذلك نستطيع أن نكسب الطالب من هذه الاختبارات المختارة في عام ، أكثر مما يستطيع أن يكسب من المجتمع في سنين حين ينتظر طروء هذه الاختبارات عليه جزافاً .

التربية للمجتمع والمجتمع للتربية ، وإذا انفصلت المدرسة عن المجتمع ، وإذا انفصل إنسان ، رجلا كان أو امرأة ، عن المجتمع فهو ، بقدر هذا الانفصال : تنقص أو تنعدم تربيته .

* * *

وقصة صغيرة أخيرة أرويها عن چون ديوى لأنها تكاد تلخص لنا إيماءة حياته وهدف فلسفته . فإن هذا الرجل كان يحيا كي ينشد الاختبارات في هذه الدنيا ؛ وهو يختبر كي يتفلسف ويستقطر الحكمة والسعادة من اختباراته

ولذلك نجده قبل نحو ست سنوات يقصد إلى قرية أو مدينة صغيرة يعيش فيها آخر أيامه بعيداً عن صخب العواصم وهرولتها . وهو يحب

حتى فى سنى شيخوخته فى هذا المعتكف أن يؤدى عملا أو خدمة للمجتمع ، فهو يربى البقر ويستدر اللبن ، فإذا جاءت طلائع الصباح حمل اللبن على عربته وهرع إلى البيوت يوزعه بالثمن المجزى . وهو يقص علينا فى فكاهة أن إحدى السيدات التى فتحت له الباب كى تتسلم منه زجاجة اللبن طلبت منه ألا يقرع هذا الباب ، وإنما يقصد إلى الباب الخلفى الذى يؤدى إلى المطبخ . . .

فيلسوف لا غش فيه . .

سارتر
زعيم الانفرادية

الفلسفة الوجودية ، المذهب الوجودى ، بول سارتر . . .

كلمات تجرى على الألسنة للمناقشة والمداعبة . . .

تجرى على ألسنة الأساتذة الذين تعمقوا الفلسفة ، أو العلميين الذين ينشدون ديناً أو مذهباً يتفق مع الثقافة المادية التى تغمرهم .

وتجرى على ألسنة الشبان والفتيات الذين وجدوا فى مذهب الحرية التى تدعو إليها الوجودية ، أو تضطر إلى الاعتماد عليها أساساً قوياً تنهض عليه ، وجدوا فيها ما يقارب الإباحة . فاستهتروا ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً بأنهم فلاسفة أو أن بول سارتر يؤيدهم . . لا . هم شبان يضحكون ويمرحون لا أكثر .

حضرت درامة لبول سارتر فى باريس ، ولم أستطع الحصول على

تذكرتى إلا قبل ميعادها بخمسة أيام لفرط التزاحم على رؤيتها . وكان ثمنها جنيهاً كاملا ، وهذه الدرامة هى : « إبليس والله الطيب » .

وهى تحوى من الزندقة أو الهرطقة مالا يطيقه مؤمن ، ولكن المتفرجين أنصتوا وكأنهم كانوا فى قاعة جامعية يتعلمون .

إنهم شعب قد تعلم معانى التسامح ، وهو أن تتقبل فى يسر وصمت ما تتألم منه لأنك تعرف أن لغيرك الحق فى أن يعتقد غير ما تعتقد .

ولقد رأيت أحد الممثلين ينظر إلى أقدس شخصية عند المسيحيين فيقول : أنت أصم أنت أبكم !

ثم يقف ممثل آخر فيقول : « الناس متساوون ، الناس إخوة ؛ وهم جميعهم فى الله ، والله فيهم . والروح القدس ينطق من جميع الأفواه . وجميع الناس إنما هم كهنة وأنبياء ، وكلهم قادر كفء لأن يقوم بالتعميد وأن يشهد بالزواج ويعلن بالبشارة الطيبة ويغفر الخطايا . وكلهم يحيا الحياة العامة على الأرض فى مواجهة الناس كما يحيا الحياة الخاصة مع نفسه فى مواجهة الله » .

وهذه كلمات يستطيع القارئ المسلم أن يتحمل الكثير منها دون معارضة ، ولكن المسيحى يجد فيها المناقضة للمبادئ الكنسية إن لم نقل للمبادئ المسيحية المعروفة . ومن هنا الصدمة التى أحدثتها هذه الدرامة فى باريس للكثيرين من المؤمنين .

ولكن حتى هنا نجد سارتر رقيقاً مهذب الكلمة لطيف الإيماءة . أما فى كتبه فإنه يصارح بالإلحاد ، بل يجعل الإلحاد أساساً لفلسفته ومذهبه . وهذا على الرغم من أن هناك وجوديين ، مثل جاسبر ، وجبرايل مارسيل ، يأخذون بمذهب الوجودية مع الإيمان بالله .

وعندى أن وجودية سارتر ليست شيئاً جديداً على أوربا إلا من حيث لهجتها الهجومية . وهى عندى أيضاً ليست فلسفة ، وقصارى ما أفهمه منها أنها مذهب أخلاقى هو فى النهاية ثمرة النزعة المادية فى العلوم، كما هو ثمرة النزعة الانفرادية التى كانت تسود القرن التاسع عشر فى السياسة والأخلاق .

ما هى الوجودية ؟

هى أنك موجود . هى أنك قد وجدت .

ولكن وجودك هذا لم يكن ليزيد على سائر الأشياء الموجودة مثل الحجر والشجرة والملح والسكر . ولكنك أنت تختلف عن هذه الأشياء بأنها هى تبقى « موجودات » لا تزيد على ذلك ، أما أنت فإنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك فتصوغ نفسك وتستخرج أو تستخلص جوهرك . أنت وجود أولا ثم جوهر ثانياً .

أنت تولد وتحيا على هذه الأرض سبعين أو ثمانين سنة . ونحن نعرفك وأنت فى السنة الأولى من عمرك مثلا شيئاً « موجوداً » لا أكثر . ولكن بعد أربعين أو خمسين سنة نجد أنك قد « تجوهرت » فظهرت خلاصتك وأصبحت لك دلالة ، فأنت وزير أو مؤلف أو ثرى أو محام أو فيلسوف . وهذا هو الجوهر بعد الوجود .

ومن الذى أحالك من الوجود إلى الجوهر ؟

أنت نفسك . لأن كلا منا يتناول حياته من حيث يدرى أولا يدرى ، كأنها « مشروع » يقوم بإتمامه . وقد يشرع أحدنا فى بناء بيت أو متجر أو غير ذلك من المشروعات ، ولكن حياتنا « مشروع » أيضاً . إذ نحن نبنيها منذ طفولتنا تقريباً إلى أن نموت ، وعلى قدر مهارتنا فى البناء تكون حياتنا سامية أو متوسطة أو دون المتوسط .

وما دامت الحياة مشروعاً ، وما دمت أنت تقوم بإنجاز أو إتمام هذا المشروع ، فأنت مسئول عن حياتك . عن جوهرك .

أنت مسئول لأنك حر فى اختيارك للأشياء التى انتهت بك إلى هذا الجوهر . وواضح أنك قد أخذت أحسن ما وجدت فى هذه الدنيا ، وهنا يقول سارتر بالحرف :

« ليس الإنسان شيئاً أكثر من أن يكون المشروع الذى شرعه وخططه لنفسه . ووجوده نفسه ليس قائماً إلا على الحدود والقياسات التى يحققها لنفسه ، وهو إذن ليس شيئاً أكثر من مجموع أعماله ، ليس شيئاً أكثر من حياته » .

نحن أحرار ، إذ نحن نختار أحسن ما نجد فنخطط مشروع حياتنا . وإذن نحن نخترع شخصيتنا . أجل ، إن سارتر يقول إن الإنسان يخترع الإنسان . ويقول بالحرف : « ليس الإنسان شيئاً آخر غير مجموع مشروعاته ، هو مجموع علاقاتها الواحد مع الآخر » .

وهو يلحظ هنا أن هذا المذهب يكرهه كثيرون ممن لم يصيبوا نجاحاً فى الحياة ، ولكننا نحملهم مسئولية فشلهم لأنهم أساءوا الاختيار حين اختاروا عملا معيناً يرتزقون منه ، أو أخلاقاً معينة اتخذوها للسلوك للعام أو الخاص ، أو حين اختاروا زوجاتهم أو أصدقاءهم أو نحو ذلك . ويقول :

« هاك رجلا يرتبط بعمل ويؤدى خدمة ، وهو بهذا قد رسم حياته . بل ليس هناك من حياته ما يزيد على ذلك . وواضح أن هذه الفكرة تبدو قاسية عند أولئك الذين لم ينجحوا فى الحياة . . »

* * *

ما هى النقطة البؤرية عند سارتر ؟

هى إلحاده : هى أنه يقول إننا ، نحن البشر يتامى فى هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه فى اتخاذ الأخلاق أو تعيين الأهداف « نحن همل » نحن سدى : قد حكم علينا بالحرية . هى حكم علينا وهى ليست ميزة لنا .

ولذلك : لأننا أحرار ، نحن فى قلق ، نحن فى حيرة ، كيف أختار ؟ كى أخطط حياتى ؟ كى أنجز مشروع حياتى ؟

ويتذكر سارتر هنا قول دستوفسكى :

« إذا لم يكن الله موجوداً فكل شىء " يجوز " . أى أن الإنسان عندئذ يصبح مجرماً يرتكب ما يشاء من جرائم كما تمليها عليه شهواته » .

ولكن سارتر يرد فيقول : لا ، إنما الإنسان حر لأنه مسئول . وهذه الشهوات لا تقود الإنسان ، إنما الإنسان هو الذى يقودها ، وهو مسئول عن التصرف بها .

هذه المسئولية هى التى تدفعه فى النهاية إلى أن يكون مسئولا عن المجتمع : لأنه ما دام يختار أحسن الأشياء لنفسه فهو أيضاً يختار هذه الأشياء ذاتها للمجتمع الذى يعيش فيه . وهو يقول بالحرف : « إننا حين نطلب الحرية لأنفسنا نجد أنها تتوقف على حرية الآخرين كما تتوقف على حريتنا » .

وهذا عنده الرد الكافى على دستوفسكى .

وإليك منه هذه المقتبسات المثيرة :

« يجب أن نجعل الاختيار للأخلاق مثل صياغة العمل الفنى ، نصوغ حياتنا كما لو كانت تحفة فنية » .

ثم يقول : « يصف الوجوديون الرجل الجبان بأنه هو المسئول عن جبنه . وهو ليس جباناً لأن له قلباً أو رئة أو مخاً ، ليس جباناً لأن

له نظاماً فسيولوجياً معيناً . وإنما هو جبان لأنه بنى نفسه على هذه الصورة بأعماله » . وأيضاً : « الجبان قد صاغ نفسه بالجبن . والبطل قد صاغ نفسه بالبطولة » .

هو مذهب انفرادى يمعن فى الانفرادية . كأن المجتمع ليس مسئولا عن الفرد . وأن الفرد ليس مسئولا عن المجتمع . وما دام الشأن كذلك فأنت مضطر إلى أن تقول إنك حر وإنك تختار . وإنك تخترع حياتك ، وإنك مسئول عن كل ميزاتك أو نقائصك .

اعتبر كلماته هذه : « أنا محتاج إلى أن أعين القيم الأخلاقية . وإذن يجب أن نعتبر الأشياء كما هى فى الواقع . وإذا قلنا إننا نخترع هذه القيم الأخلاقية فمعنى هذا أنه ليس للحياة ، أولا ، معنى . أى قبل أن تولد أنت لم تكن الحياة شيئاً له معنى . والقيمة الأخلاقية ليست شيئاً أكثر من هذا المعنى الذى تكسبه أنت للحياة ، وإذن نجد أنه من الممكن إيجاد مجتمع بشرى على هذا الأساس » .

أصحيح هذا ؟ هل يمكن إيجاد مجتمع بشرى إذا كنا نفرض قبل كل شىء أن كل إنسان حر فى أن يخترع أخلاقه بنفسه لنفسه ؟

إن هذا إمعان فى الانفرادية التى قد تنتهى بالفوضى الاجتماعية والأخلاقية .

* * *

إنى عندما أتأمل الوجودية التى طغت على الباريسيين هذه الأيام ، أرانى أفتقد فيها الفلسفة فلا أجدها ؛ وأنتهى إلى أنها « مذهب » ولكنها مذهب ضار .

ذلك أن الفلسفة تمتاز بأنها يمكن البرهنة على صحة قواعدها . ولكن الوجودية تلقى بقواعدها كما لو كانت عقائد دينية ، وإن خلت من

الأساس للأديان الكبرى من حيث الإيمان بالله .

أما أنها مذهب ضار فذلك لإسرافها فى الفردية . فالإنسان عند الوجوديين مسئول أمام نفسه ولنفسه فقط . وليس مسئول أمام المجتمع ولا أمام الله .

ثم هى مع ذلك تفرض للإنسان حرية الاختيار . كأن المجتمع بعاداته ولغته ، وسنى الطفولة التى تتكون فيها المركبات وتكاد تتجمد ، والوسط الثقافى والاجتماعى ، ووطأة الحوادث وتنوعها ، كل هذا لا يؤثر فى تكوين الفرد أو توجيهه . إذ هو حر فى الاختيار . وينسى سارتر أنه اختيار الضرورة ، اختيار الجبر .

ولكن السؤال هنا : لماذا نجحت الوجودية فى فرنسا بل فى أوربا ؟

اعتقادى أن نجاحها يرجع أولا إلى التفكير المادى الذى عم أوربا وجعل الأوربيين ينفرون من الغيبيات بأنواعها جميعاً . ويرجع ثانياً إلى إحساس الزهو الذى تضفيه الوجودية على المؤمن بها . من حيث إنه مستقل فى هذا الكون ، له حق الاختيار دون أية قوة أخرى . ويرجع ثالثاً إلى اليسر البديع فى أسلوب سارتر الذى يجعل الأستاذ والطالب والحوذى والسمكرى ، يفهمونه بلا استغلاق . ولعل الوجودية أول ما فهموه من أنواع الرطانة الفلسفية . وهم بهذا الفهم سعداء مزهوون . ويرجع هذا النجاح أخيراً إلى أنها تناقض الأخلاق الاشتراكية التى تقول ، أول ما تقول ، بأن الإنسان قد تكون بالمجتمع ، ثم هو يجب أن يكون المجتمع الأمثل .

ومعنى هذا أنه أصبح للوجودية معنى سياسى . حزبى . فهى لذلك تتسلل إلى المنابر ويأخذها الخطباء بالقدح والمدح وتذكر كلماتها وعقائدها أيام الانتخابات البرلمانية . ولذلك هى أكثر من « فلسفة » . هى كفاح ، هى سياسة ، هى حزبية .

° ° °

ولو كنت أخاطب الشبان وأنشد لهم القوة والمجد لدعوتهم إلى الوجودية وعندئذ أكون معتمداً على مايسميه القانونيون « أكذوبة شرعية » أى أكذوبة أهدف منها إلى أن أجعل الشاب يحس أنه مسئول ، وأنه يستطيع أن يتسلط على القدر ويصوغ حياته كما يشاء . وأن عليه أن يأخذ حياته بالجد والبصر إذ هو مستقل ، وهو حر ، وهو قادر ، إذا شاء ، أن يصل إلى أعلى قمة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وحين أقول هذا القول أعرف أنى ، من حيث الفلسفة والسيكلوجية والاجتماع ، كاذب. إذ أن الإنسان ليس حرًّا ، وأن الحقيقة أن المجتمع يصوغه .

وموقفى هنا لا يختلف من موقف القضاء . فإننا نحاكم المجرمين « كما لو كانوا » مسئولين ليس للمجتمع تأثير عليهم . وعلى هذا الأساس نعاقبهم .

وهكذا الشأن أيضاً فى الأخلاق . يجب أن نقول إن كل إنسان مسئول عن أخلاقه ، ونعامله كما لو كان حرًّا قد اختار هذه الأخلاق .

وإذن لا تزيد الوجودية على أن تكون مذهباً ارتقائيًّا فى الأخلاق ووسيلة إلى بعث النشاط والحيوية والجد .

° ° °

سبق أن قلت إن « إلحاد » بول سارتر يعد نقطة بؤرية فى فلسفته ولكننا يجب أن نبين هنا أن هذا الإلحاد ليس هوى وليس طارئاً . لأنه إنما يتفق ويتناسق مع فلسفته ، إذ هو يقول إننا نوجد أولا ثم نتجوهر ثانياً .

أى الوجود ، الظاهر لنا ، نعرفه أولا .

ثم الجوهر ، أو الماهية ، أو الأصل ، خلف الوجود ، نعرفه ثانياً ،

إذا استطعنا ذلك . وإذا عددنا أن الله هو أصل الكون فمحاولتنا لأن نعرفه يجب ألا تكون بداية البحث .

لأن بداية البحث هى الوجود الظاهر وليست الماهية المستترة ، بل ليست هناك عند سارتر ماهية لأى شىء ، وإنما هناك وجود فقط . وقد نقول إنك تتجوهر بعد أربعين سنة ، ولكن هذا المعنى مجازى هنا ، لأننا نقصد منه أنك تتكامل وتصل إلى أقصى كفاءاتك وميزاتك .

ولذلك سارتر ينكر الإيمان بالله ، بل هو يكافح هذا الإيمان .

* * *

ويجب أخيراً ألا نقلل من إقدام سارتر على أن يكتب الفلسفة للشعب ، أو على حد قوله إنه قد أدخل الفلسفة فى السوق . فإنك تقرأه فلا تجد تلك الكلمات النابية أو العبارات المعقدة التى تجدها عند من كتبوا قديماً حين كانت الفلسفة تكتب للفلاسفة وليس للشعب ، أو كما كان يكتب الفقه للفقهاء وليس للشعب .

وهو هنا مبتكر ونافع وجرىء ، ولكن الأدباء العصريين قد سبقوه بأن صاروا يكتبون منذ نحو مائتى سنة للشعب أيضاً .

وهنا فرق عظيم بين الأدب الأوربى والأدب العربى ، أو على الأقل الأدب العربى القديم . فإن أمثال المتنبى والجاحظ والفرزدق وابن الرومى كانوا أدباء يكتبون لأدباء مثلهم وليس للشعب . بل إن المتنبى كان يفخر بأن الأدباء أنفسهم لا يفهمونه ، إذ يختلفون عن معانيه ويناقشونها وهو قاعد هانئ .

وهذا التغير إنما يعزى إلى أن « الشعب » لم يكن موجوداً عند الأمم القديمة . والذى أوجده فى أوربا هو الحركة الصناعية الجديدة التى عممت الثراء بين أفراده ثم عممت التعليم ، فصار الأدباء والفلاسفة يكتبون للشعب وليس للأدباء والفقهاء والفلاسفة .